(02) عِبرة للمعتبِرين في شهود عظمة وقدرة ربّ العالمين من دروس غزوة مؤتة أوّل معركة بين المسلمين والصليبيّين

2025-11-07

الحمد لله الذي خَصّ حبيبه ومصطفاه سيّدنا ومولانا محمّدا صلى الله عليه وسلم بأسنى المناقب، ورفعه في الشّرف إلى أعلى المراتب، وجعل سيرته الزّكيّة أمنًا لمن تمسّك بها ونجاة من المعاطب. فهي أساسَ العمل والعبادة، والإقتداء بها يحقِّق في الدارين السعادة، فسبحانه من إله اِختار لنبيّه صلى الله عليه وسلم خيرةَ خَلْقه من الصّحابة، ذوي الخُلُق الأَوْفى وحُسْن الإنابة، فأقبلت جوارحُهم على طاعة ربّها مستجابة. فقد جاهدوا في الله حقّ جهاده، ونشروا دينه في بلاده وعباده، وباعوا أنفسَهم وأموالَهم من أجل الشهادة. حتى نالوا الحسنى وزيادة،

هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ * مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْناً وَسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً * فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الْوَخَمِ

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُباً * مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لاَ مِنْ شَدَّةِ الْحُزُمِ

تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمُ * فَتَحْسبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِي

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ * إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

مَنْ يَعْتَصِمْ بِكَ يَا خَيْرَ الوَرَى شَرَفًا * اللَّهُ حَافِظُهُ مِنْ كُلِّ مُنْتَقِمِ

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. جَعَلَ دِينَهُ ظَاهِراً عَلَى كُلِّ دِينٍ، وأَعَزَّه بِرِجَالٍ صَادِقِينَ، وَاخْتَارَهُمْ لِمَحَبّةِ نَبِيِّهِ. صلى الله عليه وسلم. فَكَانُوا نِعْمَ الصّاحِب وَالْمُعِين، وكَتَبَ لَهُمُ الْعِزَّةَ وَالسِّيَادَةَ وَالتَّمْكِينَ،

هنيئًا لأصحاب خيرِ الوَرَى * وطُوبَى لأصحاب أخبارِهِ

أولئك فازوا بِتَذْكِيرِهِ * ونحن سَعِدنا بِتِذْكَارِهِ

وهم سبقونا إلى نَصْرِهِ * وها نحن أتباعُ أنصارِهِ

ولَمَّا حُرِمْنا لِقَا عَيْنِهِ * عَكَفْنَا على حِفْظِ آثارِهِ

عسى الله يَجْمَعُنَا كُلَّنا * برحمته مَعْهُ في دارِهِ

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله. وصفيّه من خلقه وخليله. أمين وَحْيِه، وخاتَمُ رُسُله، وبشير رحمتِه، ونذير نِقْمته، بعثه بالنور الْمُضِي، والبرهانِ الْجَلِي، فسَفُلَتْ بِحَقِّه الدامِغ كلمةُ الباطل بَعْد عُتُوِّها وطُغْيانِها، واتّصلَت برسالته أنوارُ الهدى. وظهرت حُجَجُها بعد اندراسِها وانقطاعها.

يا سامعِي أخبارِه ومفاخِرِهْ * ومطالِعِي آثارِه ومآثِرِهْ

ومؤمِّلِي وافِي الثوابِ ووافِرِهْ * إنْ شئتُمُ فوزاً بذاك عظيمًا

صلّوا عليه وسلِّموا تسليمًا

اللهم صلِّ وسلِّمْ وبارِك على سيّدنا محمّد. عُنْصُرِ شجرة النبوءة التي عذُبَت في المسامع أحاديثها وأذكارها. وتنافست الرجال في خدمتها. وعلى آله الحائزين شرف السيادة وعظيم مِقْدارها. كما ورد ذلك في صحيح السنّة وأخبارها. وعلى أصحابِه الذين كسّروا جيوش الكُفْر، وفتحوا حصون خيبر وقِلاعِها، وهجروا في محبّة داعيهم إلى الله الأوطار والأوطان، ولم يرجعوا إليها بَعْدَ فراقها وَوَدَاعِها، وحَفَظُوا على أتباعهم أقوالَه وأفعالَه وأحوالَه حتى أَمِنَتْ بهم السُّنَنُ الشريفة من ضياعها. صلاة وسلاما دائمَيْن متلازمَيْن ما دامت السماءُ في سُمُوِّها، والأرضُ في اتّساعها، ويكونان لنا سببا لدخول الجنّة والتمتّع برياضها وأعذب أنهارها. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. قدّمنا لكم من سيرة النبي ﷺ في الجمعة الماضية غزوة مؤتة، لكونها وقعت في هذا الشهر: شهر جمادى الأولى، وهي أوّل معركة وقعت بين المسلمين والصليبيين على حدود الشام، وقدّمنا لكم أنها وقعت

في أربعة مشاهد؛ فرأينا في المشهد الأوّل كيف كان النبي ﷺ يهيّئ جيشه للمعركة، وعدده ثلاثة آلاف مقاتل، حيث أوصاهم: ألاّ يقتلوا الأطفال ولا النساء ولا الشيوخ، ولا المنعزل المسمّى اليوم بالمدنيّين، ولا يهدموا بناء ولا يقطعوا شجرا، فقارنّا بين هذه الوصية النبوية، التي تُعدّ أصلا لقواعد الحروب في الإسلام، وبين ما ارتكب الصهاينة والصليبيّون على مرّ التاريخ، وما زالوا يرتكبون اليوم من جرائم حرب لا حدود للإنسانية فيها.
أيّها المسلمون. فتعالوا بنا لنكشف الستار عن المشاهد الثلاثة الباقية، ففي المشهد الثاني: نرى أنّ جيش الإسلام يصل إلى مؤتة، وهي في حدود الأردن الآن، وكلُّه بأس وإقدام وشجاعة، يجلّلهم الإيمان، وتغشاهم السكينة، ويعلوهم اليقين، إمّا النصر. وإمّا الشهادة. فيفاجئه العدوّ الصليبي بعدد هائل، وقد جمع له مائتي ألف مقاتل، وماذا بإمكان ثلاثة آلاف أن تفعل أمام مائتي ألف؟ ولكن الصحابة رضوان الله عليهم رغم ذلك تقدّموا، لأنهم يعلمون أنّ النصر لا يكون بكثرة العدد والعتاد، بقدر ما يكون بقوة الإرادة والإيمان، فخاضوا المعركة غير المتكافئة، وكان يوماً مشهوداً في تاريخ المسلمين، وبدأت المعركة، واعتصم المسلمون بالله الواحد الأحد، الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وطلبوا المدد والنصر من القويّ العزيز سبحانه، الذي ينصر عباده المؤمنين في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. قال تعالى في سورة غافر: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ}. معركةٌ عجيبةٌ غريبةٌ في دنيا الواقع، تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، حيث يقف ثلاثة آلاف مسلم أمام مائتي ألفٍ من الروم وأحلافهم، تستغربها موازين البشر، وتعجز عن إدراكها العقول. ولكن إذا هبَّت ريح الإيمان جاءت بالعجائب والمذهلات.
فلا عجب إذا كان الله عزّ شأنه مالك الملك، ورب الأرباب مع المسلمين، فمَنْ يهزمهم؟ ومِمَّن يخافون؟ والناصرُ هو الله؟ قال تعالى في سورة الأنفال: {ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ

ٱلصَّٰبِرِينَ۝}. أيّها المسلمون. أخذ الراية زيد بن حارثة، رضي الله عنه، أوّلُ الأمراء الثلاثة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحِبُّه، فقاتل قتالاً مريراً. وقدّم من ضروب البسالة والشجاعة ما يعجز عنه الوصف، بفضل إيمانه وصِدْقه، وصَدَق فيه قولُ الله تعالى في سورة آل عمران: {فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ۝}. وبينما هو كذلك إذ أصابه رمحٌ من رماح الأعداء، فخرّ شهيداً، رضي الله عنه. مقبِلاً غيرَ مدبِر، وبعده أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه. وطفق يقاتل قتالاً عجيبًا، حتى إذا أرهقه القتال، فاقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، وهو أوّل رجل من المسلمين عقر فرسه، وأوّل فرس عُقِر في سبيل الله، عقره خوفا أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين، ثم قاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشِماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضدَيْه، فلم يزل رافعًا إيّاها حتى قُتل. ويقال: إنّ روميًا ضربه ضربةً قطعته نصفَيْن، وأثابه الله بذراعَيْه جناحَيْن في الجنّة، يطير بهما حيث يشاء، كما قال النبي ﷺ فيما روى الطبراني بإسناد حسن، ولذلك سُمِّي بجعفر الطيّار، وبجعفر ذي الجناحَيْن. وفي صحيح البخاري عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ((فالتمسنا جعفراً فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعاً وتسعين طعنةً ورميةً، وكانت كلها فيما أقبل من جسده)). ولما قُتل جعفر أخذ الراية الأمير الثالث عبد الله بن رواحة، رضي الله عنه، وكاد أن يرجع، وتردّد بعض التردّد، لكثرة الحشود الرومانية الهائلة، فعاتب نفسه وخاطبها شِعْرًا، وتقدّم وهو يقول:

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلنَّهْ * طائعةً أو لتُكرَهِنَّهْ

إن أجلب الناس وشدّوا الرَّنَّهْ * ما لي أراكِ تكرهين الجَنَّهْ

قد طالما مذ كنتِ مطمئنّهْ * هل أنتِ إلا نطفةٌ في شَنَّهْ

ونزل عن فرسه ولواء النبي صلى الله عليه وسلم بيده، فقاتل مقبِلاً غير مدبِر حتى قُتِل، لاحقاً بزمِيلَيْه اللذَيْن سبقاه إلى الشهادة، لحقهما وهو يردّد:

يا نفسُ إلاّ تُقتَلي تموتِي * هذا حِمام الموت قد صُلِيتِ

وما تمنّيتِ فقدْ أُعطِيتِ * إن تفعلي فِعْلَهما هُدِيتِ

يريد صاحبيْه: زيدا وجعفرا. رضي الله عنهما. أيّها المسلمون. ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم بن ثعلبة الأنصاري، رضي الله عنه. فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على سيّدنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه. ولم يمض على إسلامه خمسة أشهر بَعْدُ، ولكنّها الرجولة، التي قال الله تعالى عنها كما في سورة الأحزاب: {مِّنَ ٱلْمُومِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضِىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّنْ يَّنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاٗ}. فقاتل رضي الله عنه قتالا مريرًا، حتى تكسّرت في يده تسعة أسياف، يقول خالد كما في صحيح البخاري: ((ودُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، ولم تبق معي إلا صفيحة يمانية)). وحينما تولّى قيادة الجيش، نظر بثاقب فِكْره العسكري، فرأى أنّ استمرار الحرب في ظروف غير متكافئة، سيؤدّي إلى استنزاف المسلمين دون مقابل، فقرّر الإنسحاب بذكاء، بعد إرهاب العدوّ وإيهامه بوصول إمدادات جديدة، فصمد حتى الليل واستغلّ الظلام ليغيّر مراكز المقاتلين، وحوّل الميسرة ميمنة، والميمنة ميسرة، والمؤخّرة مقدّمة والعكس، وطلب من خيّالة المسلمين اصطناع غبارٍ وجَلْبة قويّة، فظنّ الروم أنّ المسلمين جاءهم مدد، فخارت عزائمهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب. واشتدّ عليهم المسلمون. وانهزم الروم أسوأ هزيمة. ما رُؤي مثلها قط. وغنم المسلمون منهم أكثر ما كان معهم، والله تعالى يقول في سورة البقرة: {كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٗ كَثِيرَةٗ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَاللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَۖ}. ولم يستشهد من جنود الله إلا اثنا عشر رجلاً. منهم الثلاثة أمراء الجيش. وهذا من عناية الله تعالى بالإسلام وأهله. ومزيد إعزازه ونصره لهم. ومقامهم إلى اليوم في

مؤتة. يزار ويتبرّك بهم. ويُسمّى الإنسحاب على هذا النحو في الفنّ العسكري اليوم بالاِنسحاب الاستراتيجي، أيّها المسلمون. وفي المشهد الثالث: نرى أنّ الوحي قد سارع إلى إبلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحداث المعركة، وهو بالمدينة المنوّرة، ، ففي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نعى زيدا وجعفرا وابنَ رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: ((أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأُصيب. وعيناه صلى الله عليه وسلم تذرفان. ثم قال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم)). فكان ذلك معجزة من معجزاته ﷺ، حين أخبر الناس بتفاصيل المعركة قبل أن يصل أحد، وبالفعل لقد كان فتحًا عظيمًا ونصرًا مبينًا، بفضل الله تعالى ثم بسالة هؤلاء الأبطال، أيّها المسلمون. وفي المشهد الرابع: نرى أنّ الجيش يصل إلى المدينة المنوّرة، يقوده سيف الله المسلول، سيّدنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، وقد تلقّاه أطفال الصحابة بمظاهرات سلمية، مستنكرين رجوعهم، دون تحقيق النصر على الأعداء، ويَحْثُون على وجوههم التراب، مردّدين: ((يا فُرّار يا فُرّار! فررتم في سبيل الله))، وسبب هذه المظاهرة: أنه انتشر في المدينة المنوّرة شائعات كاذبة، مفادها: أنّ خالد بن الوليد قد انهزم وفرّ هاربا، فتأثّر بذلك حتى الأطفال، فكادت هذه الإشاعة تُطيح بقيمة خالد بن الوليد العسكرية، لولا مبادرة الرسول ﷺ بتصحيح الموقف، وتوضيح الهدف؛ فاستقبل ﷺ الجيش بالترحاب، وأَوْقف المتظاهرين، ونهاهم عن تصديق الأكاذيب، وردّ الإشاعة قائلا: ((ليسوا بالفُرَّار؛ بل الكُرَّار إن شاء الله))؛ أيْ: سيُعيدون الكَرّة مرة أخرى. أيّها المسلمون. ولم يمض عام واحد، حتى كان المسلمون يتحَدَّوْن جيوش الروم، بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، في غزوة تبوك، كما لم يمض عقد واحد، أيْ عشر سنوات، بعد وفاة النبي ﷺ، حتى كان هذا السيف المسلول خالد بن الوليد يُعيد الكَرّة، ويُحقّق للنبي ﷺ الرغبة: ((بل الكُرَّار إن شاء الله))؛ فيَهزم الإمبراطورية الصليبية في

خلافة سيّدنا أبي بكر الصِدِّيق، رضي الله عنه. أيّها المسلمون. هذه بعض أخبار تلك الغزوة العظمى. غزوة مُؤْتة. التي تتفجّر عظة وعبرة، والتي نصر الله عباده فيها نصراً مؤزّراً. وأرهبت الروم في شمال الجزيرة العربية. وقذفت الرعب في قلوب الذين كفروا. فصاروا يحسبون للمسلمين ألف حساب، وقدِمت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها تتحالف معه. وزاد عدد الذين صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً. فرضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأَكْرَم نُزُلَهم، وجَمَعنا بهم في جنّات النعيم. اللّهُمَّ بِحَقِّهم عِنْدَكَ. وَمَنْزِلَتهم لَدَيْكَ، إغْفِرْ لنا وَلِوالِدينا وَلِجَمِيعِ الْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ، وَانْفَعْنا اللهمّ بمَحَبَّتِهم، واحشرنا في زمرتهم. وَلا تَحْرِمْنا شَفاعَتَهم، وَثَبِّتْنا عَلى قَصْدِهِمْ، ولا تخالف بنا يا مولانا عن سنّتهم ولا عن طريقتهم. وَتَوَفَّنا عَلى ما تَوَفَّيْتَهُمْ عَلَيْهِ، وَاجْمَعْ بَيْننا وَبَيْنَهُم في مُسْتَقَرِّ دارِ رَحْمَتِكَ، في مَحَلِّ رِضْوانِك، وَمَوْضِعِ اِكْرامِك، مَعَ النَّبِيّينَ وَالصِدّيقينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً، اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولّنا فيمن تولّيت، اللهم اكشف الغمّة، وأصلح أحوال الأمّة، واجمع كلمتها على الحق والدين. اللهم هيّئ لهذه الأمّة رجالاً من أمثال تلك القدوات الصالحة، من العلماء العاملين. والدعاة الناصحين. الذين يستنيرون بنور النبوّة. ويقتدون بنهجها. ويستنّون بسنّتها. اللهم أبرم لهذه الأمّة أمرا رشدا. يُعَزّ فيه أهل طاعتك. ويُذَلّ فيه أهل معصيتك. ويُؤمَر فيه بالمعروف. ويُنهَى فيه عن المنكر. يا سميع الدعاء. اللهم احفظ المسلمين في دينهم ودمائهم. وأعراضهم وبلادهم، واكفهم شرّ عدوّك وعدوّهم. اللهم انصر إخواننا المستضعفين في فلسطين وفي السودان، وفي كلِّ مكان، اللهم ارحم ضعفَهم. واجبر كسرَهم. وتولَّ أمرهم. واحفظهم. واحقن دماءَهم. يا ربَّ العالمين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين. اهـ